ويضع خرائط لتوزيع البدو في قلب الجزيرة العربية ولكنه اضطر الى الاسراع عندما علم بأن ابراهيم في طريقه الى المدينة المنورة.

وفي سبتمبر ١٨١٩ علم ابراهيم برغبة الكابتن سادلير في مقابلته ولما لم يكن مصرحاً لأي مسيحي بدخول المدينة فقد استقبله ابراهيم في موقع خارجها اسمها «بير علي». وهناك سلمه سادلير رسالة حاكم بومباي وعرض عليه طبيعة بعثته وأخبره أن حكومة الهند البريطانية قد ساءها تكرار العدول من القراصنة الوهابيين الذين يقيمون على ساحل الحسا على السفن التي تسير في الخليج وبأنها تنوي ارسال أسطول حربي لتخريب أوكار القراصنة في سبعة مرافئ على الخليج الفارسي وأن حكومة الهند البريطانية تأمل أن تشاركها القوات المصرية بحملة من البر وأن يكون العمل مشتركاً على سواحل الخليج.

وقد رد ابراهيم بأنه ليس مخولاً بالبت في مثل هذه الأمور اذ انه انما ينفذ رغبات أبيه كما هي ولذا فليس في وسعه أن يعد بشيء قبل أن يبعث بالمقترحات الإنكليزية الى القاهرة واقترح على سادلير أن يذهب الى جدة في انتظار الرد النهائي على تلك المقترحات.

ولكن طال انتظار سادلير في جدة الى أن وصل الأمر الى ابراهيم بأن «يرد طلب سادلير في حكمة وتلطف وأن يتعلل بأنه قد وعد بأن يستريح هو وجنوده بعد فتح الدريعة ازالة للتعب واستجماماً للراحة» ولما تحقق سادلير من فشل بعثته أبحر الى بومباي في ٢٣ يناير ١٩٢٠ في الوقت الذي عاد ابراهيم الى القاهرة بعد أن نظم شؤون الحكم في المناطق المجاورة لساحل الخليج بحيث يصبح الحكم محلياً في أيدي «ابن عريعر» وهو أحد الموالين لمحمد علي.

• • • •

وعند قيام الدولة السعودية الثانية التي أسسها تركي بن عبدالله ثم ولده فيصل بن تركي وقعت الحسا في قبضة السعوديين وهنا يبدأ الدور الثاني لظهور القوات المصرية مرة أخرى على سواحل الخليج بقيادة القائد العظيم خورشيد باشا. وكانت مهمته في أول الأمر أن يقوم من المدينة المنورة على رأس حملة لغزو نجد والمنطقة الشرقية حتى ساحل الخليج وذلك بقصد القضاء على الدولة السعودية الثانية التي استفحل أمرها هناك.

وكان خورشيد باشا قبل أن يقوم بحملته على نجد والخليج قد اتخذ المدينة مقراً لقيادته عندما كان مكلفاً باخضاع قبائل بني حرب التي تسكن تلك المنطقة وفي أبريل ١٨٣٨ تحرك خورشيد باشا بقواته المصرية الى اقليم القصيم بنجد واتخذ من عنيزة مقراً لقيادته.

ومنذ أن استقر في عنيزة لم تنقطع وفود مشايخ القبائل الذين كانوا قد انضموا الى فيصل بن تركي آل سعود ولسنا الآن بسبيل الحديث عن تفاصيل تلك الحملة ولكن يكفي أن نذكر أنها تغلبت على الدولة السعودية الثانية وشرع خورشيد في تنظيم الحكم الجديد رغم كل العراقيل التي كانت تركيا ورجال السلطان العثماني يضعونها في طريق استقرار القوات المصرية هناك وذلك عن طريق الاتصال بفيصل بن تركي وتشجيعه على المقاومة. وكان والي بغداد العثماني هو المكلف من الباب العالي بذلك الاتصال وهو الذي كان يدعو فيصل بن تركي الى الثبات ويبلغه رضا الباب العالي عنه ويعده بارسال المدد اليه ان كان في حاجة الى رجال أو مال أو عتاد.

والواقع أن الدعاية التركية كانت في ذلك الوقت تعمل على وضع العراقيل في طريق تثبيت حكم محمد علي في الجزيرة العربية بعد النزعة الاستقلالية التي أثارت الحرب بين السلطان ومحمد علي وبعد أن كانت الدولة العثمانية تعمل على تحطيم الحركة الوهابية أصبحت تتصل بالدولة السعودية الثانية للتحالف معها على اخراج القوات المصرية من الجزيرة العربية.

غزو المنطقة الشرقية

جدير بالذكر أن أفراد القوات التي نجحت في غزو المنطقة الشرقية ووصلت الى ساحل الخليج كانوا من الجنود المصريين الذين تلقوا تدريباتهم العسكرية وفق «النظام الجديد» الذي استحدثه محمد علي عندما عزم على تكوين جيش حديث من المجندين المصريين. وكان قائدهم خورشيد باشا تلقى دراسته العسكرية على أحدث النظم التي أدخلت في مصر وأن الباحث ليعجب أشد الاعجاب ببطولة هذا القائد الكبيرة عندما يستعرض الظروف السيئة التي واجهت القوات المصرية في نجد وعلى الأخص في المنطقة الشرقية وأهمها:

أولاً: تحالف عليه أعداء زاد عددهم بكثير عن عدد جنوده. وكادت المؤن تنفد منه تماماً حتى اضطر الجند الى أن يقتاتوا بلباب النخيل. وكان خورشيد يضطر الى أن يأمر بذبح الجمال التي اشتراها من قبل لحمل أثقال الجيش من مؤونة وعتاد لتكون طعاماً للجنود. أضف الى ذلك ما أصاب الخيول من الهزال نتيجة انعدام العليق حتى اضطر الفرسان الى تركها ترعى الحشائش بعد أن نفد البرسيم.

• محمد علي باشا

ثانيا: كان بعض أهالي نجد ممن دخلوا الطاعة قد تعهدوا لخورشيد باشا بأن يقدموا له ما يطلبه من الخدمات الا أنهم لم يكونوا مخلصين له بل كانوا يميلون الى نصرة فيصل ضد الحكم المصري.

ثالثا: صعوبة القيام بالحرب على الطريقة الحديثة في نجد أن «جدران المنازل والأبراج مصنوعة من الطين المصبوب في عرض ثلاث أو أربع أذرع فاذا صوبت اليها المدافع لا تهدم القذيفة أي مكان من الجدار الذي أمامها وانما تخرق الموضع الذي تصيبه وتنفذ من الوجه الآخر ولا يمكن هدم الجدار الا بعد اطلاق المدافع عدة مرات.

رابعا: لا يبرز أهالي القرى في نجد للحرب مواجهة وانما يختبئون في الأبراج والبساتين التي بداخل البلدة ثم يطلقون البنادق وهم مختفون في كل مكان ولا يقل عدد الأبراج في كل قرية عن خمسة وعشرين برجاً. وحين تقوم القوات المصرية بالهجوم تجد القرية كلها قد تحولت الى ميدان متسع الجوانب تخرج النيران فيه من كل مكان.

ومع كل هذه الصعوبات استطاع خورشيد باشا بما اتصف به من قوّة العزيمة وسعة الحيلة أن يجعل قواته تضيق الخناق على فيصل حتى اضطره الى التسليم هو ومن معه من الأمراء السعوديين وأرسلهم الى المدينة المنورة تمهيداً لترحيلهم الى مصر.

وبانتهاء دولة فيصل بن تركي آل سعود بدأ عهد جديد في تاريخ الحكم المصري في تلك الأقطار النجدية بما فيها المناطق الواقعة على ساحل الخليج حيث تبين لمحمد علي خطأ ترك هذه البلاد بغير تنظيم أو حاميات كبيرة وذلك بعد أن عانت القوات المصرية فيها ما عانت في سبيل الانتصار على الدولة السعودية الثانية. ولذلك رأى أن يعهد الى خورشيد باشا بتنظيم أمر هذه البلاد ومحاولة استغلال مواردها في انشاء حكومة صالحة وسدّ حاجة جيش الاحتلال.

وكانت المهمة التالية هي العمل على مدّ النفوذ المصري حتى ساحل الخليج. وفي أواخر عام ١٨٣٨ أخذت الفرق المصرية تتدفق نحو الخليج مبتدئة باخضاع الحسا أقرب مناطق الخليج الى نجد. ورأى خورشيد أن يستدعي أميرهم القديم ابن عريعر الذي فرّ من وجه السعوديين وعينه أميراً من جديد بعد أن هزم عمر بن عفيصان الذي كان فيصل قد عيّنه أميراً للحسا ثم فرّ منها الى البحرين.

وهكذا تم فتح منطقة الحسا واحتلال موانئ القطيف والعقير حيث وضعت بكل منها حاميات مصرية. أما القطيف فقد وجد خورشيد أنها في حاجة الى عناية كبيرة اذ ان مياه الميناء لا تستقر على حال واحدة بل تقل تارة وتكثر تارة أخرى وليس بالميناء فرضة مناسبة لدخول السفن ولذلك اعتبرت جزيرة البحرين ميناء الحسا والقطيف.

وكانت الحكومة البريطانية تتابع تطورات القتال الذي دار في نجد ومناطق الساحل فأرسل المقيم البريطاني في بغداد روبرت تيلور الى حكومته في لندن يقول ان المعلومات التي تجمعت لديه هي أن القوات المصرية تتدفق على ساحل الخليج وربما تكون البحرين هي الهدف.

والواقع أن تيلور كان مصيبا في تكهناته لأن خورشيد باشا كان يتطلع الى بسط السيطرة المصرية على البحرين وهي خطوة شاقة تحتاج الى سياسة حكيمة وكفاية حربية دقيقة ولكنه كان مصمماً على احتلالها لعدّة أسباب:

أولا: مركزها الجغرافي الذي جعل منها ميناء للمنطقة التي احتلتها الجيوش المصرية في الحسا والقطيف وترد اليها السفن من الهند والبصرة وعمان «فادخالها تحت الحكم المصري يساعد على رواج التجارة المصرية ويبعث الحركة والنشاط في المنطقة المصرية على ساحل الخليج الفارسي».

ثانيا: أصبحت جزيرة البحرين مأوى أعداء الحكم المصري الذين فروا اليها تباعا من الحسا ونجد وهناك في البحرين يعملون على تدبير المؤامرات ضد الحكم المصري فهناك يقيم عمر بن عفيصان حاكم الحسا السابق ومحمد بن سيف العجاجي حاكم القطيف السابق وكثير من الزعماء الوهابيين وجماعة من جنود فيصل بن تركي ممن تمكنوا من الفرار أثناء المواقع الحربية بين المصريين وفيصل.

ثالثاً: يتوارد على البحرين عدد من طوائف البدو الذين منعهم خورشيد من دخول القرى في نجد والحسا حتى يقدموا الجمال المطلوبة منهم للجيش المصري. وهؤلاء البدو اعتادوا أن يعرجوا على تلك القرى مرة في السنة لأخذ ما يحتاجون اليه من تمر وطعام ثم يعودون الى الصحراء. فلما منعوا من دخول الحسا والقطيف وقرى المنطقة الشرقية وجدوا بغيتهم في جزيرة البحرين يأخذون منها ما يحتاجون اليه وأصبحوا في غنى عن تلك القرى فلا يضطرون الى تقديم الجمال المطلوبة لقوات محمد علي.

وصل المندوب المصري محمد رفعت الى ساحل الخليج لكي يدرس أحوال الموانئ الواقعة في تلك المنطقة ويمهد الطريق أمام القوات المصرية للتحرك نحو البحرين في الوقت المناسب. ثم انتقل الى البحرين لمفاوضة أميرها عباله بن أحمد آل خليفة بطريقة ودية للانضواء بطريقة أو بأخرى تحت لواء الحكم المصري.

وكان وصول المندوب المصري محمد رفعت في ٧ مايو ١٨٣٩ الى خور حسان على ساحل قطر حيث كان أمير البحرين عبدالله بن أحمد آل خليفة في انتظاره وأرسل المندوب له قبطان السفينة يخطره بحضوره مندوباً عن خورشيد باشا للمفاوضة فأرسل اليه أمير البحرين رسولا لكي يرحب به ويدعوه الى الاقامة في القلعة التي يقيم فيها.

وكان الجو ملائماً للمفاوضة فقد كان الأمير اذ ذاك حائراً بين سلطتين أخريين تحيطان به وتتبادلان اجتذابه ومحاولة الاتفاق معه فشاه فارس «ايران» يدعوه الى الانضمام الى دولته ويتعهد له بحمايته من القوات المصرية: التي وصلت الى الخليج ومن جهة أخرى اتصلت الحكومة البريطانية به ودعته الى التخلي عن الاتصال بالمصريين وأخذت تعرض عليه عروضاً مغرية أضف الى ذلك وصول مندوب آخر يمثل والي العراق العثماني يحذره باسم حكومة الباب العالي من الاستسلام لحكومة محمد علي.

أما الإنكليز الذين كانوا يراقبون حركات القوات المصرية في حذر وقلق فكلفت حكومة الهند البريطانية مندوبها في بوشهر بالاتصال بأمير البحرين ليحثه على عدم الاستسلام لخورشيد باشا لو فكر في مهاجمته او الاتفاق معه وأن يعده بحماية بريطانية له اذا هاجمه. ولفت نظره الى أن «أي اتفاق بينه وبين المصريين يكون مخالفاً لما سبق الاتفاق عليه بينه وبين الحكومة البريطانية منذ سنين».

والواقع أن أمير البحرين عبدالله بن أحمد آل خليفة كان فعلاً يطمع في حماية الإنكليز له منذ أن استولت القوات المصرية على منطقة الحسا وأخذت تهاجم قلعة الدمام لذلك أرسل قنصل بريطانيا في بوشهر يخبره بأن «المصريين أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من غزو البحرين وأنهم يستطيعون بكل سهولة الاستيلاء عليها في ليلة واحدة». وأضاف الى ذلك قوله: «فان كان عندكم ما يعاوننا الآن فأرسلوا مقداراً من الجند في سفنكم وان لم ترسلوا من يعاوننا فاننا مضطرون الى الارتباط مع خورشيد باشا وفق قوانيننا وقواعدنا القديمة».

ويظهر أن القنصل الإنكليزي لم يكن مخولاً باعطاء جواب قاطع في مسالة المساعدة العسكرية لأمير البحرين ولذلك رأى الأخير أن يستقبل المندوب المصري محمد رفعت ويعقد معه اتفاقاً يصون به امارته.

ومع أن أمير البحرين كان يخشى السيطرة المصرية على الجزيرة الا أنه لم يجد بدا من التسليم بالأمر الواقع فهو يسمع أخباراً فيها كثير من المبالغة عن القوات المصرية النظامية المرابطة على ساحل الخليج وهو في الوقت نفسه يخشى من ادعاء الفرس ملكية الجزيرة وقد تؤدي مساعدتهم له الى فرض سيطرتهم عليها ثم ان الإنكليز يتراخون في مدّ يد المساعدة العسكرية ضد القوات المصرية.

لهذا كله قرر استقبال المندوب المصري محمد رفعت ومفاوضته وقد أفصح للمندوب عما يجول بخاطره في مبدأ الأمر عندما كانت الدعاية تصف القوات المصرية في نجد بالوحشية وتصورهم غزاة همجاً لا همّ لهم الا السلب والنهب وأنه تحقق بعد ذلك من كذب تلك الادعاءات. ولذلك فهو يرحب بالاتفاق مع حكومة محمد علي على الرغم من تهديد الإنكليز والفرس. ثم أضاف الى ذلك قوله: «لقد رأينا تبعيتنا لكم مأمونة العاقبة بسبب معاملتكم لغيرنا بالانصاف ولاسيما أن العجم على مذهب الشيعة الروافض والإنكليز على غير الملة الاسلامية».

ولكن قبل أن تبدأ المفاوضة طلب عهدا يؤمنه فيه خورشيد باشا باسم حكومة مصر على امارته وأملاكه وقد استصدر له المندوب

• جانب من المعارك